علاقة العلم بالخطاب الديني

د. العربي بن الشيخ

كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإسلامية

مقدمة:

الدين من وضع الله موجه للإنسان، الخطاب فيه لذوي العقول السليمة يسوق سلوكهم إلى ما فيه خير؛ ومن ثم جاءت مادة الدين أقوالا تحمل أوامرا بالفعل والترك، وأخبارا عن غيب لا يتوصل إليه الإنسان بمعرفته الذاتية إلا بواسطة مصدر خارجي وهو الوحي.

العلم هو موضوع الكون وما يحوي من خلائق وهو فعل الله، ومن وضعه، لذلك لا يخالف العلم خبر وتقرير الدين؛ لأنهما من مصدر واحد، فالأول قوله والثاني فعله، وعلى ذلك كل مفارقة بينهما تعود لأحد أمرين؛ إما عدم فهم واستيعاب لنصوص الدين، أو خطأ في المقولة المنسوبة للعلم، لأن العلم ما هو إلا كشف عن حقيقة موجودة في الواقع خلقها الخالق ووضعها منتظمة وفق ناموس منضبط.

لقد جعل الله مكانة خاصة للعلم والعلماء في دينه وحباهم بتقدير وتكليف دون سواهم، خطورة دورهم في بيان المعارف المتعلقة بأقواله وأفعاله سبحانه وتعالى. وبيَّن في كتابه أنهم اقرب الناس إليه في خوفهم ومعرفة الحقيقة فقال: " وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ"(28 فاطر)

أهم خصائص الخطاب الديني:

تقوم جميع الحقائق العلمية والمعتقدات في الإسلام على قواعد مضبوطة لا تخالف المعقول مصدرها الوحي (القرآن الكريم والسنة الشريفة) لأنه الخبر المنقول عن الخالق، وبالتالي ينتفي التعارض بين الخبر المقروء والواقع المنظور، هذا هو المبدأ الأساسي الذي انطلق منه العلماء المسلمون في بحوثهم لاعتبار أن الكشف عن طبائع المخلوقات وقوانين الطبيعة دلائل محسة يدركها العقل، وينصورها لبيان حقائق الوحي المنقول " و إذا خرجنا هذه النظرة من الكتاب والسنة تمكنا من معرفة الخصائص المميزة للإسلام التي تظهر الفروق بينه وبين غيره من الأديان والمذاهب والفلسفات"[1] كما تبين لنا الاختلافات والموافقات بينه وبين الحضارة الغربية الحديثة التي تعتمد على الكشوف العلمية التجريبية، فأول الموافقات

الحث على طلب العلم الطبيعي وتحصيله وتسخير القوانين الطبيعية التي تربط بين أجزاء هذا الكون فيما يخدم الإنسان، ويوفر له الرفاهية في معاشه. أما الفوارق فهي: أنّ جعل الإسلام طلب العلم مقيدا، بأخلاق تجلب المنفعة وتحقق المصلحة، وتدرأ المفسدة وبذلك يكون تحصيل هذا العلم وسيلة للخير، وجعله الله في كتابه آيات تدل على قوة الإيمان به، وإدراك عظمته في خلقه لقوله تعالى: «قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» (20 العنكبوت) وقوله تعالى: « سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ»(53فصلت) وهذا الأمر يتطلب شروطا تؤهل طلب وطالب العلم.

أولا- التأهيل للبحث:

تبعا لتعاليم الوحي استنبط المسلمون من نصوص الوحي شروطا للعلم ولطالبه، وضوابط تضبط المعارف منهجا وموضوعا لكل علم[2]. فالشروط أولها أن يكون العلم نافعا: أي يتحقق من طلبه مصلحة للعباد، وثانيها يشترط في الباحث أن يكون أمينا وصادقا، وله القدرة على استيعاب العلم الذي يحمله، ومن ثم كان العلماء المسلمون الأوائل ينبّهون تلاميذهم ويوصونهم بعدم تعليم من تفتقد فيه هذه الأوصاف درء لاستغلالها في المفاسد، وإثارة الفتن. و"نحن نعلم قطعا أنه لا يخلو عصر من الأعصار من علماء يرون ان في الشرع أشياء لا ينبغي أن يعلم بحقيقتها جميع الناس"[3].

لقد نظم الشافعي لهذه القواعد نظما فقال:[4]

العلم من فضله، لمن خدمه — أن يجعل الناس كلهم خدمه
فواجب صونه عليه كما — يصون في الناس عرضه ودمه
فمن حوى العلم ثم أودعه — بجهله غير أهله ظلمه

وقال في أخلاق طالب العلم:[5]

أخي لن تنال العلم إلا بستة — سأنبيك عن تفصيلها ببيان
ذكاء وحرص واجتهاد وبلغة — وصحبة أستاذ، وطول زمان

وقال[6]:

تصبر على مر الجفا من معلم — فإنه رسوب العلم في نفراته
ومن لم يذق مر التعلم ساعة — تجرع ذل الجهل طول حياته

وقال في آداب المعلم:[7]

ساكتم علمي عن ذوي الجهل طاقتي ولا انثر الدر النفيس على الغنم
فإن يسر الله لي الكريم بفضله وصادفت أهلا للعلوم وللحكم
بثثت مفيدا واستفدت ودادهم وإلا فمخزون لدي ومكتتم
فمن منح الجهال علما أضاعه ومن منع المستوجبين فقد ظلم

ومن تلك الشروط للعلم والمتعلم خلص الملمون إلى وضع منهج قويم يضبط المعلم في موضوعه ومؤداه فأول ما قام به العلماء صنفوا العلوم إلى علوم شرعية تتناول دراسة الكتاب والسنة، في علم التفسير والأصول والفقه وعلوم الحديث، وعلوم طبيعية تتناول علم الطب والأحياء والكيمياء والرياضة... الخ، ومن القواعد الضابطة لعلوم الشريعة استخرجوا قواعد عامة في المنهج أهمها الاستقراء والتجربة، حيث لا تعمم نتيجة إلا بعد استقراء عمومها في حالها، أو بعد إجراء تجربة تكرارها في ظروفها، وكانت أهم مميزات منهج الباحث الموضوعية المتعلقة بنتائج البحث، وتقبل النقد في الدراسة، والاحتكام إلى الأدلة القاطعة المجردة من التدخل الذاتي؛ أي تقرر النتيجة تبعا للأدلة والمراجعات للمفهوم المتوصل إليه[8]، وذلك مستخلص من القرآن الذي "رفع المستوى العقلي للمسلمين ووجههم إلى اكتشاف المجهول عن طريق مشاهدة الواقع والتأمل فيه فاخصب الحركة الفكرية"[9] بأهم القواعد الاستدلالية في تخرج النتائج العلمية التي تخص غير المنصوص عليه بواسطة القياس وتحديد العلل، وبهذه الضوابط في البحث الشرعي استطاع المسلمون أن يستخرجوا المنهج التجريبي في كثير من العلوم وخاصة الفنون التطبيقية[10] المضبوطة بنواميس طبيعية أودعها الخالق فيها ورفض المسلمون بطلان كل ما لم يتوصلوا إليه، وإنما بذلوا الجهد في تحقيق الأدلة التي يقوم عليها أو يبطل قال أبو بكر الرازي في ذلك: "لا ينبغي لنا أن ندع شيئا نؤمل فيه نفعا من أجل أن قوما جهلوا وتعذوا، وقد كان الواجب عليهم لو كانوا أهل رأي ونثبت أن لا يبتدروا إلى إنكار ما ليس عندهم على بطلانه برهان"[11]. يطبق هذا المنهج في المعقول والحس أما المنقول الخارج عن الإدراك فالتحقيق فيه والبرهان على صحته ينصرف إلى دراسة الرواية، وضبطها وصحة تأويلها الذي يعتمد على ثلاثة دلائل: الخطابية، والجدلية، والبرهانية، كل دليل يختص بنوع من الناس فمن كان من أهل الخطاب، أو الجدل فضرب له الله في الكتاب أمثالها وأشباهها؛ أما العلماء فيعلمون

بالبرهان فما تقرر شيء في الشرع لا يجوز تأويله لأن تأويله خطأ مثل يوم الحساب مفهومه من ظاهر اللفظ[12]، وبناء على هذه المناهج تكون العلوم الشرعية والعقلية تخدم أكبر قضية في الدين وهي: توحيد الله وما يتبعها من قضايا أما العلوم الطبيعية فهي تخدم قضية الاستخلاف في الأرض التي مفادها توحيد الخالق، والاهتداء بهديه ومن هنا تتوجه العلوم الطبيعية إلى دراسة الموجودات لاستخراج المنافع الكامنة فيها وتسخيرها لتحصيل المصالح العامة والخاصة، وليس لإثبات الحقائق المنقولة بالرواية في الوحي إلا من باب تقريب تصور بعض جوانبها ذهنيا لبيان وجه الإعجاز المستمر عبر الزمان.

ثانيا- أسس ربط العلوم الطبيعية بالشرعية:

يوجد رأيان عند علماء المسلمين في تفسير نصوص الوحي بنتائج الكشوف العلمية فمنهم من عارض الاستدلال بالكشوف على تخريج معاني ودلالات النصوص، ومنهم من رأى أن الاستشهاد بها يبين الإعجاز العلمي الملازم لنصوص القرآن والأحاديث، ويعد الدليل على استمرار المعجزة الخالدة، إن جيل الصحابة وهم المعاصرون للتنزيل لا يمكن عدهم معارضين أو مؤيدين؛ لأن القرآن وأحاديث الرسول ﷺ كانت تواكب الأحداث، أما أخبار الغيب فكانوا يتقبلونها بالتسليم، ومن هذا الموقف السليم بالنسبة لهم استدل المعارضون على أصالة رأيهم مثل الشاطبي، الذي يرى أن القرآن عربي والسنة عربية في الألفاظ والأسلوب والمعنى فلا يصح استدلال على استنباط إلا بما سلك به بمسلك كلام العرب[13]، وذهب إلى معارضة استخدام العلوم والفنون في بيان معاني نصوص الوحي، وضبط موقفه بموقف السلف من الصحابة وشنع باللاحقين الذين أضافوا في التفسير بعض العلوم الطبيعية.[14] فقال:

" إن كثيرا من الناس تجاوزوا في الدعوى على القرآن الحد، فأضافوا إليه كل علم يذكر للمتقدمين أو المتأخرين من علوم الطبيعيات، والتعاليم والمنطق وعلم الحروف وجميع ما نظر فيه الناظرون من هذه الفنون وأشباهها وهذا إذا عرضناه على ما تقدم لم يصح، ولهذا فإن السلف الصالح من الصحابة والتابعين ومن يليهم كانوا أعرف بالقرآن وبعلومه وما أودع فيه، ولم يبلغنا أنه تكلم أحد منهم في شيء من هذا المدعى، سوى ما تقدم وما ثبت فيه من أحكام التكاليف، وأحكام الآخرة وما يلي ذلك ولو كان لهم في ذلك خوض ونظر لبلغنا منه ما يدلنا على أصالة المسألة إلا أن ذلك لم يكن، فدل على أنه غير موجود

عندهم، وذلك دليل على أن القرآن لم يقصد فيه تقرير لشيء مما زعموا"[15]. ثم بين أن المعاني التي لا عهد للعرب غير معتبرة. فقال: "ربما استدلوا على دعواهم بقوله تعالى: (ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء) (89 النحل) وقوله تعالى: (ما فرطنا في الكتاب من شيء) (38 الأنعام)... فأما الآيات فالمراد بها عند المفسرين ما يتعلق بحال التكليف والتعبد، أو المراد بالكتاب في قوله: (ما فرطنا في الكتاب من شيء) اللوح المحفوظ ولم يذكروا فيها ما يقتضي تضمنه لجميع العلوم النقلية والعقلية... فليس يجائز أن يضاف إلى القرآن ما لا يقتضيه، كما أنه لا يصح أن ينكر منه ما يقتضيه... فمن طلبه بغير ما هو أداة له ضل عن فهمه وتقول على الله ورسوله فيه"[16]

كذلك عارض محمد حسين الذهبي التفسير العلمي لنصوص القرآن من الجوانب الآتية:

– إن إضافة معاني جديدة لألفاظ القرآن يؤدي إلى توسع دلالاتها عن ما هي معروفة عند العرب أثناء التنزيل وهذا لا يعقل لأنه جعل لتلك الألفاظ معاني جديدة واصطلاحات حادثة.

– من الناحية البلاغية التي هي مطابقة مقتضى الحال، والتفسير العلمي يفرغ من بلاغة القرآن، وذلك بفرض إما أن العرب يجهلون هذا المعنى وهذا يجعل القرآن غير بليغ، وإما أن تكون معلومة لديهم أثناء التنزيل، فلم لم تحدث نهضة علمية شاملة في تلك الحقبة، ولم تأخرت بعد ذلك بزمن.

– وكذلك من جانب العقائد فتطور المصطلحات والدلالات يؤدي إلى تغيرها وهذا يشكك في القرآن.[17]

أما المؤيدون للتفسير العلمي لنصوص القرآن فمنهم من ذهب إلى الاستدلال بكل ما بلغه من فرضيات ونظريات حيث اخضع مفهوم النصوص لها دون ضابط أو قيد وهؤلاء وقعوا في المحظور على خلاف المفسرين المعتدلين، مثل الفخر الرازي الذي اعتمد بعض الحقائق الثابتة واستعملها في المقارنة لتقريب التصور السليم حول مفهوم من مفاهيم الآية، ولم يقصر مفهومها على ذلك، بل أطلقه كقوله: "ما المراد من كون تلك الأيام الأربعة سواء؟ (10 فصلت) فنقول إن الأيام قد تكون متساوية المقادير كالأيام الموجودة في أماكن خط الاستواء وقد تكون مختلفة كالأيام الموجودة في سائر الأماكن"[18] استشهد الرازي

بتسوية الأيام إذا كان مدلول اليوم حقبة زمنية ومدلول لفظ سواء عائد إلى التسوية بين الأيام، وأطلقه إذا كان المقصود به غير ذلك.

ولقد وضح محمد الطاهر بن عاشور الإعجاز العلمي في تفسيره إذ قسمه إلى قسمين: "قسم يكفي فيه لإدراكه فهمه وسمعه وقسم يحتاج إدراك وجه الإعجاز فيه إلى العلم بقواعد العلوم فينبلج للناس شيئا فشيئا انبلاج أضواء الفجر على حسب مبالغ الفهوم وتطورات العلوم وكلا القسمين دليل على أنه من عند الله لأنه جاء به أمي"[19] وذلك لأن ألفاظ القرآن موجزة تتضمن معاني لم تف بها الأسفار الكثيرة والمخاطبين به يقتضي أن يكون المفهوم الأصلي مفهوما لديهم وما زاد يفهم لدى من اكتسب آلة فهمه لأن عجائبه لا تنقضي ومن وجب عدم قصر أنواع معانيه.[20]

وبالنظر في أقوال المعارضين والمؤيدين للتفسير العلمي أو الاستدلال بالكشوف العلمية في تفسير معنى من معاني نصوص الكتاب يمكن الجمع بين أوجه التعارض لتخريج ضوابط تحدد مجال استعمال نتائج الكشوف العلمية الطبيعية في بيان مفهوم النص وذلك بضبط محل الاستدلال بها في تخريج مفهوم من المفاهيم المتضمنة في ألفاظ الخطاب.

الخاتمة:

1- نصوص القرآن وحي من الخالق علمه محيط فلا يقتضي التصويب، وعلم المخلوق محدود ونسبي في الصحة والخطأ.

2- يمكن الاستدلال بالحقائق العلمية في بيان وجه من معاني نص قطعي الدلالة.

3- التعارض بين نصوص الوحي قطعية الدلالة بدلالة الفرضيات يلغي الأخيرة.

4- إذا وجد تعارض بين نص قطعي الدلالة وبين حقيقة علمية دل على وجود خلل في بيان مفهوم أحدهما لا يمكن اعتماد الفرضيات العلمية في بيان النص الظني الدلالة إلا باشارة وجود توافق في معنى من المعاني وترك المعنى المطلق قائم بلا تقييد.

5- وفي حالة توافق مفهوم لنص قطعي الدلالة مع مفهوم حقيقة علمية يكون بيانا له دون تقييد أو حصر للمعنى الجامع المطلق للنص عليه.

- التوفيق بين رأي المعارضين والمؤيدين ممكن إلى تخريج ضوابط وقواعد تحدد علاقة العلم بالخطاب الديني وما بينهما من رابطة ضرورية وأساسية تجعل المؤمن يطلب

تحصيل المعارف بصورة سليمة، وبوظفها في محلها اللائق، فيكون بذلك متعبدا لله بطلب العلم.

الهوامش:

[1] محمد المبارك الإسلام والفكر العلمي، ص 22؛ ومصطفى الفلابني. الدين والعلم.المكتبة العصرية. صيدا. د.ط.ت.

[2] –حسن صعب الاسلام وتحديات العصر، ص 9.

[3] –ابن رشد، فصل المقال، ص 38.

[4] –الشافعي، ديوان الشافعي، ص 98.

[5] –الشافعي، ديوان الشافعي، ص 99.

[6] – الشافعي ، ديوان الشافعي، ص 41.

[7] – الشافعي ، ديوان الشافعي، ص 93،94.

[8] – بركات محمد مراد، البيروني فيلسوفا، ص 95–108.

[9] –عز الدين الخطيب، وآخرون، نظرات في الثقافة الاسلامية، ص 15–18.

[10] –حيدر بامات، اسهام المسلمين في الحضارة الإنسانية، ص 80.

[11] –حيدر بامات، اسهام المسلمين في الحضارة الإنسانية، ص 3 8–39.

[12] –بن رشد ، فصل المقال، ص 46–52.

[13] –الشاطبي، الموافقات، ص 44/1.

[14] –معاذ يلدرم، مستندات التوفيق بين النصوص القرآنية وبين النتائج العلمية الصحية، المؤتمر العالمي الأول، تأصيل الاعجاز العلمي في القرآن والسنة اسلام اباد (25–28 صفر 1408هـ).

[15] –الشاطبي، الموافقات، ص 79/2–80.

[16] –المرجع السابق، ص 80/2–82.

[17] –معاذ يلدرم، مستندات التوفيق بين النصوص القرآنية وبين النتائج العلمية الصحيحة، المؤتمر العالمي الأول تأصيل الاعجاز العلمي في القرآن والسنة، اسلام ابد (25–28 صفر 1408 هـ) ، ص 39–40.

[18] –الفخر الرازي، التفسير الكبير، 103/27.

[19] –محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ص 127/1.

[20] –المرجع السابق، ص 45/1.